الضاد الخالدة

لفضيلة الشيخ الحاج إبراهيم نياس

مفتي الديار السنغالية

توصلنا من فضيلة الشيخ الاستاذ الحاج ابراهيم نياس مفتي الديار السينغالية وحامل مشعل الدعوة الاسلامية فى البلاد الافريقية ببحث قيم حول اعجاز لغة القرآن وتطوراتها التاريخية ، وقد أبى حفظه الله الا ان يشيد بمجلة « اللسان العربي » ذلك « المنبر المبارك الذي يتعاقب عليه باستمرار المستعدون من اصحاب الغيرة على لغة القرآن يشيدون بعظمتها ويبرزون خصائصها ويدافعون عن حماها ويسخرون من المحاولات التي تستهدف تعطيل رسالتها الخالدة ، ولكن لغة الضاد مضمونة البقاء لانها بالقرآن عاشت وتحدت العصور والعقبات وبالقرآن تخلد » .

قال حفظه الله ما ملخصه :

اللغة العربية اقدم اللغات الحية فليس ثمة فى العالم لغة محكية اقدم منها ولا تزال اللغة العربية تحتفظ بالاعراب تاما كاملا كما كان شأن جميع اللغات القديمة ، اما معظم اللغات الاخرى فقد فقدت الاعراب ولكننا نجد الاعراب شبه تام فى اللغتين الالمانية والايسلندية كما نجد بعض الاعراب فى اللغة الدنمركية واللغة الروسية ، وهناك آثار للاعراب فى عدد من اللغات الباقية .

ويبدو أن اللغة العربية انفصلت مع اخواتها الشماليات من اللغة السامية الام منذ زمن بعيد جدا ثم عادت فانفصلت من المجموعة الشمالية ايضا منذ زمن بعيد واذا نحن دققنا النظر فى اللغة العربية وجدناها اكثر اخواتها الساميات مفردات واتمها صيغا واكملها صرفا ونحوا وارقاها بيانا وبلاغة واحسنها اسلوبا من اجل ذلك لا نستبعد ان تكون اللغة العربية هي اللغة السامية الام الفصحى وان سائر اللغات السامية من شمالية كالبابلية والكنعانية والارامية ومن جنوبية كالحبشية والحميرية لهجات ومع كثرة الصلات التي كانت بين عرب الشمال وعرب الجنوب منذ اقدم الازمنة فان لغة حمير اليمن ابتعدت كثيرا عن اللغة المضرية العربية الشمالية التي نزل بها القرآن الكريم حتى قال ابو عمرو ابن العلاء منذ صدر الدولة العباسية : « ما لسان حمير واقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » .

وكان جميع العرب الذين كانوا يسكنون النصف الشمالي من شبه الجزيرة فى البحرين واليمامة ونجد والحجاز سواء اكانوا ينتسبون الى مضر او الى اليمن يتكلمون لغة واحدة وينظمون فيها اشعارهم فلقد راينا شعراء الجاهلية من أي المواطن كانوا ينظمون قصائدهم بلغة واحدة فى كل شيء ثم يحملون تلك القصائد لينشدوها فى جميع اقسام بلاد العرب وفى العراق والشام حتى اليمن نفسها مما يدل على ان لغة مضر كانت فى الجاهلية اللغة العامة للعرب كلهم .

على أن هذا لم يمنع ان يكون للعرب لهجات محلية مأنوسة فى قبيلة قبيلة على أن معنى اللهجة هنا انما هو استعمال الفاظ مختلفة للمعنى الواحد فى بعض الاحيان والمجيء بصيغ متباينة لتلك الالفاظ احيانا أما التركيب والنحو والمنطق اللغوي فكانت كلها واحدة .

ففي الحجاز مثلا كانوا يسهلون الهمزة فيقولون سال سل وكد كلاك بينما كان اهل نجد يقولون سأل اسأل اكد كلأك وكان اهل الحجاز يقولون وعد بمعنى هدد وكان بعضهم يقول سكين بينما بعضهم الآخر كان يسمي السكين مدية ، ولقد كانت هذه الالفاظ المختلفة في القبائل المختلفة مألوفة على كثرة او قلة في جميع بلاد العرب ودائرة على السنة شعراء الجاهلية فلما جاء اصحاب المعاجم عدوا جميع هذه الالفاظ عربية تامة فضموها الى معاجمهم من غير تفريق بينها .

ومن هنا نشأت المترادفات الكثيرة حتى رأينا للسيف في القاموس العربي الف اسم وحتى رأينا كلمة خال تدل على اربعين معنى .

وخضعت لغة مضر لما كانت قد خضعت له اخواتها من قبل بعوامل من الهرم وبتأثير من العوامل الاجنبية فبدأ فيها اللحن قال ابو عمرو بن العلاء : « فحلان من الشعراء كانا يخطئان في حركة الروى الحرف الذي تبنى عليه القافية النابغة وبشر بن ابي خازم وهذا معروف عند امرىء القيس وعند غيره ايضا فاذاكانوا يلحنون فمابالك بسائر اهل الجاهلية».

وفي خصائص ابن جني(ص37):«ونزل القرآن الكريم بلغة العرب التي كانوا ينظمون فيها شعرهم ويلقون فيها خطبهم ويتخاطبون بها فيما بينهم ومصداق ذلك قوله تعالى في سورة ابراهيم وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » .

وجاءت صفة مبين نعتا للسان العربي وللقرآن وللكتاب وللرسول اثنتى عشرة مرة في القرآن الكريم منها « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين » ومنها ايضا « نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » . ومع نزول القرآن الكريم ولاهتمام المسلمين بتدوين كل آية عند نزولها ثم بالمحافظة على كل جملة ولفظة وحركة ووقف عليه.

وقفت لغة مضر عن التقهقر وحفظت الى اليوم كما كانت في عهد الرسول لغة لنا فصحى صحيحة مأنوسة ومنذ الجاهلية دخلت على اللغة العربية كلمات اعجمية لمسميات لم تكن عند العرب ثم طرأت عليهم فأخذوها باسمائها غير أن اللسان العربي استطاع أن يصقل هذه الالفاظ الاعجمية حتى اصبح بعضها وكأنه عربي خالص .

من هذه الالفاظ : قرطاس درهم دينار سجل برنس كرسي دمقس استبرق قصر ، وهذه الكلمات الاعجمية دخلت في الشعر الجاهلي وبعضها ورد في القرآن الكريم .

وبينما كانت اللغة العربية تتمثل هذه الالفاظ الاعجمية كانت ثمة الفاظ عربية خالصة تخرج من الاستعمال وتصبح غريبة بعد أن كانت دائرة في الشعر الجاهلي وبعد أن كان بعضها قد جاء في القرآن الكريم من هذه الالفاظ الحبك (بضمتين) الحبي (بفتح الحاء وضمها وبكسر الباء بعدها ياء مشددة) الفند (بفتحتين) الكذب المحال (بكسر الميم) .

ومع ان عرب الجاهلية لم يكونوا اهل كتابة فان الكتابة عندهم لم تكن نادرة كما يتخيل بعضهم. لقد كان العرب يكتبون بينهم العقود والمواثيق ويكتبون الرسائل في بعض الاحوال ويبدو ان الشعراء كانوا يدونون اشعارهم ايضا ومع ان الكتابة كانت معروفة في الجاهلية فانها لم تكن مألوفة وخصوصا في البادية.

وكثر اللحن بعد الاسلام بعوامل كثيرة منها اختلاط العرب بغيرهم من الروم والفرس والنبط بعد ان دخل هؤلاء في الاسلام وبعد ان نزل العرب بالفتح في الشام والعراق وفارس والهند وافريقية والاندلس.

ومن اسباب اللحن سكنى المدن التي يكثر فيها الاعاجم ومنها كثرة الجواري في الحياة العربية وقد كن عجميات أو مولدات ومنها تفشي الجهل بترك نفر من اهل المدن دراسة اللغة والنحو ومنها الجوازات في الشعر فقد كانت تبدأ اضطرارا ثم تعم بطول القراءة والرواية وعم اللحن حتى ان الحجاج ابن يوسف كان يستدرك عليه اللحن بعد اللحن ، اما الخليفة الوليد بن عبد الملك فقد كان لحانا .

وقال الفخر الرازي في تفسيره عند قوله تعالى: أو يأخذكم على تخوف وعن عمر انه قال على المنبر « ما تقولون في هذه الآية فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال هذه لغتنا التخوف التنقص فقال عمر هل تعرف العرب ذلك في اشعارها ؟ قال نعم ، قال شاعرنا :

تخوف الرحل منها تامكا قردا
كما تخوف عود النبعة السفن

وقد خطأوا المتنبي وابا تمام والبحتري في اشياء كثيرة كما هو مسطور في شروح تلك الدواوين وفي الاقتراح للجلال السيوطي : « اجمعوا على انه

لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين فى اللغة والعربية وفى الكشاف ما يقتضي تخصيص ذلك بغير ائمة اللغة ورواتها فانه استشهد على مسألة بقول أبي تمام الطائي » .

واول الشعراء المحدثين بشار بن برد وقد احتج سيبويه ببعض شعره تقربا اليه لانه كان هجاه لتركه الاحتجاج بشعره ذكره المرزباني وغيره ونقل ثعلب عن الاصمعي انه قال ختم الشعر بابراهيم بن هرمة وهو آخر الحجج اهـ

ومن جهة اخرى يجوز الاستشهاد بمتواتر القرآن وشاذه .

وكذلك الاستدلال بحديث النبي صلى الله عليه وسلم فقد جوزه ابن مالك ، ومنعه ابن الضائع وابو حيان وسندهما ان الاحاديث لم تنقل كما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم وانما رويت بالمعنى وان ائمة النحو المتقدمين من المصريين لم يحتجوا بشيء منه ورد الاول على تقدير تسليمه بأن النقل بالمعنى انما كان فى الصدر الاول قبل تدوينه فى الكتب وقبل فساد اللغة ، وغايته تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به فلا فرق على ان اليقين غير شرط بل الظن كاف، ورد الثاني بأنه لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال به والصواب جواز الاحتجاج بالحديث للنحوي فى ضبط الفاظه ويلحق به ما روي عن الصحابة .

وتجويز الرواية بالمعنى هو السبب — كما قال ابو الحسن بن الضائع فى شرح الجمل — فى ترك الائمة كسيبويه وغيره الاستشهاد على اثبات اللغة بالحديث واعتمدوا فى ذلك على القرآن وصريح النقل عن العرب ولولا ذلك لكان الاولى فى اثبات فصيح اللغة كلام النبي صلى الله عليه وسلم لانه افصح العرب على ان ابن خروف يستشهد بالحديث كثيرا .

وانتقد ابو حيان فى شرح التسهيل على مصنفه الاستدلال بما وقع فى الاحاديث على اثبات القواعد الكلية فى لسان العرب ملاحظا انه ما رأى احدا من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره على ان الواضعين الاولين لعلم النحو المستقرئين للاحكام من لسان العرب كأبي عمرو ابن العلاء وعيسى ابن عمر والخليل وسيبويه من ائمة البصريين والكسائي والفراء وعلي بن المبارك الاحمر وهشام الضرير من ائمة الكوفيين لم يفعلوا ذلك ، وحذا حذوهم المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الاقاليم كنحاة بغداد واهل الاندلس .

ولو وثق الناس ان الحديث هو لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم لجرى مجرى القرآن الكريم فى اثبات القواعد الكلية . غير اننا نجد قصة واحدة تدجرت فى زمانه صلى الله عليه وسلم تروى بالفاظ مختلفة نحو ما روي من قوله زوجتكها بما معك من القرآن او ملكتكها بما معك من القرآن او خذها بما معك من القرآن ، فنعلم يقينا انه صلى الله عليه وسلم لم يلفظ بجميع هذه الالفاظ بل لا نجزم بأنه قال بعضها اذ يحتمل أنه قال لفظا مرادفا لهذه الالفاظ غيرها فأتت الرواية بالمرادف ولم تأت بلفظه اذ المعنى هو المطلوب ولاسيما مع تقادم السماع وعدم ضبطها بالكتابة، والاتكال على الحفظ والضابط منهم من ضبط المعنى ، واما من ضبط اللفظ فبعيد جدا لاسيما فى الاحاديث الطوال . وقد قال سفيان الثوري ان قلت لكم اني احدثكم كما سمعت فلا تصدقوني انما هو المعنى ومن نظر فى الحديث ادنى نظر علم العلم اليقين انهم يروون بالمعنى، وهناك شيء آخر وهو أنه وقع اللحن كثيرا فيما روى من الحديث لان كثيرا من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ويتعلمون لسان العرب بصناعة النحو فوقع اللحن فى كلامهم وهم لا يعلمون ودخل فى كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب ، ونعلم قطعا من غير شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان افصح الناس فلم يكن يتكلم الا بافصح اللغات واحسن التراكيب واشهرها واجزلها واذا تكلم بلغة غير لغته فانما يتكلم بذلك مع اهل تلك اللغة على طريق الاعجاز وتعليم الله ذلك له من غير معلم اهـ

وتدوين الاحاديث والاخبار بل وكثير من المرويات وقع فى الصدر الاول قبل فساد اللغة العربية حين كان كلام اولئك المبدلين على تقدير تبديلهم يسوغ الاحتجاج به وغايته تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به فلا فرق بين الجميع فى صحة الاستدلال .

واليك نبذة من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم :

— المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم .

— الناس كأسنان المشط والمرء مع من أحب ولا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له والناس معادن وما هلك امرؤ عرف قدره والمستشار مؤتمن

وهو بالخيار ما لم يتكلم . ورحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت عن شر فسلم .

— اسلم تسلم واسلم يوتك الله اجرك مرتين وان احبكم الي واقربكم مني مجلسا يوم القيامة احاسنكم اخلاقا الموطأون اكنافا الذين يألفون ويؤلفون

— لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه وقوله ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها ونهيه عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال ومنع وهات وعقوق الامهات ووأد البنات .

— اتق الله حيث كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن وخير الامور اوسطها .

— احبب حبيبك هونا ما عسى ان يكون بغيضك يوما ما وقوله الظلم ظلمات يوم القيامة .

الى غير ذلك من بيانه مما روته الكافة عن الكافة مما لا يقاس به .

وقال صلى اله عليه وسلم بيد اني من قريش ونشأت فى بني سعد فجمع الله بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونضارة الفاظ الحاضرة ورونق كلامها الى التأييد الالهي الذي مدده الوحي .

وقد تواترت الروايات بقصة الوليد بن المغيرة : انطلق الوليد بن المغيرة حتى اتي مجلس قومه من بني مخزوم فقال والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام البشر ولا من كلام الجن ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان اعلاه لمثمر وان اسفله لمغدق وانه يعلو ولا يعلى عليه ، ثم انصرف الى منزله فقالت قريش صبأ والله الوليد والله لتصبأن قريش كلهم الى آخر القصة اهـ

قال الاستاذ الشيخ طنطاوي الجوهري :

جوهرة فى اعجاز القرآن (ص 111) حديث عجيب فى بلاغة آية « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » .

فى يوم 13 يونيو سنة 1932 قابلني الاديب المصري الاستاذ كامل كيلاني فحدثني حديثا عجيبا كان اشار اليه قبيل ذلك بمدة قبيل تقديم هذه السورة الى الطبع وهذا الحديث راجع الى البلاغة التي ظهرت فى آية يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد فهاك حديثه :

قال كنت مع الاستاذ فنكل وهو من افاضل المستشرقين الامريكيين وكانت بيني وبينه صلات ادبية وثيقة وكان يأخذ برأيي فى ذكر المشاكل التي تقابله فى الادب لما يعتقده في من الصراحة ، ففي ذات يوم همس فى اذني متهيبا فقال خبرني عن رأيك بصراحتك المعروفة ، اممن يعتقدون اعجاز القرآن أنت ام لعلك تجاري جمهور المسلمين الذين يتلقنون ذلك كابرا عن كابر ، وابتسم ابتسامة كل معانيها لا تخفى على أحد وهو يحسب أنه قد القى سهما لا سبيل الى دفعه فابتسمت له كما ابتسم لي وقلت لكي نحكم على بلاغة اسلوب بعينه ، يجب ان نحاول أن نكتب مثله او نقلده فلنحاول ليظهر لنا انحن قادرون ام عاجزون عن محاكاته وتقليده فلنجرب ان نعبر عن سعة جهنم فماذا نحن قائلون؟ فأمسك بالقلم وأمسكت به فكتبنا نحو عشرين جملة متخيرة الاسلوب نعبر بها عن هذا المعنى .

فقلت له مبتسما ابتسامة الظافر الواثق :

الآن تتجلى لك بلاغة القرآن واعجازه بعد أن حاولنا جهدنا أن نحاكيه فى هذا المعنى فقال هل ادى القرآن هذا المعنى بأبلغ مما ادينا ه فقلت لقد كنا اطفالا فى تأديته .

فقال مدهوشا وماذا قال قلت له يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد .

فصفق أو كاد وفتح فاه كالابله أمام هذه البلاغة المعجزة وقال لي : « صدقت نعم صدقت وانا اقرر لك ذلك مغتبطا من كل قلبي » هذا لفظه فقلت له :

« ليس عجيبا أن تذعن للحق وانت اديب خبير بقيمة الاساليب » .

وهذا المستشرق يجيد الانجليزية لانها لغة بلاده فى امريكا والالمانية لانها اللغة التي درس بها الادب والعبرية لانها لغة الامومة والعربية لانها اللغة التي وقف حياته على درس ادبها فهو رجل متخصص للادب وقد جعل حياته وقفا عليه .

دراسات وأبحاث لغوية

- عروبة عريقة من المحيط الى الخليج
للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله
- العرب والكشوف العلمية
للدكتور يحيى الهاشمي
- علـم الترسيس
للاستـاذ عبد الحق فاضل
- الضـاد الخالدة
لفضيلة الشيخ الحاج ابراهيم نياس
- أمثلة من الدلالة التاريخية للفظ العربى
للاستاذ عبد الله كنون
- مزالـق التعريب
بقلم مصلحة التعريب (مكتب)
- العربية فلسفة وحياة
للاستاذ عبد الرحيم السايح
- اللغة العربية على المحك
للاستاذ خليل الهنداوي
- اللغة العربية والعالم الحديث
للاستاذ شارل بيلا
- هل اللغة العربية صعبة ؟
كيف يمكن تيسيرها ؟
للاستاذ رشاد دارغـوث
- تيسير اللغة العربية للاجانب
للدكتور الطاهر احمد مكي
- اقليمية اللهجات العامية أكبر حجة على عدم صلاحيتهـا
للاستاذ الياس رنتيس
- الحرف العربى وجولاته فى العالم
للدكتور عفيف بهنسي
- المستقبل للغة العربية الفصحى
للاستاذ هنري فليش